الفانية ! .

للأستاذ كمال رستم

« مهداة إلى سعادة الأستاذ محمد كامل البهناوى بك
صاحب الأقاصيص المأثورة »

. . يحيط الطبيب فى حياته العملية أكثر من أى إنسان آخر بالطبيعة البشرية ، فهو يلم بأحاسيس مريضه وانفعالاته . . ويراه وهو يتجرد من الثياب فى حالة أشبه بحالة الرجل البدائى . .

لازيف فى الشعور . . ولا ادعاء . . ولا دهاء . وهو يلاحظ مرضاه وكيف يتصرفون عند الشدائد وعند استهدافهم للموت . . ويرقب سلوكهم إبان المرض . وفى أعقاب الشفاء . وهو فى ذلك كله يقابله الكثير من القصص المثيرة . . ولا جرم أن أشد ما يحز فى نفسه أن يقف عاجزا مكتوف اليدين من إنقاذ روح بها أو مطامنة ألم . وليس من يدرك مشاعر الطبيب فى مثل هذه الظروف القاسية إلا المشتغلون بهذه المهنة . ولعل من أكبر المشاهد التى أثرت فى نفسى فى الأيام الأخيرة ، مشهد الدموع التى رأيتها تلتمع فى عينى إحدى مريضاتى وهى تقول لى :

— إذن !

هذه الدموع التى طفرت من عينيها وتحدرت فى خطين دقيقين على وجنتيها ، لا زلت أجتليها مثلما اجتليتها لحظة هطولها ! ولا زلت أذكر كيف فيضت بمنديل يدها الصغير هذه الدموع . . وكيف تحاملت على نفسها واقفة أمامى . كأنما ذكرت فجأة أنه لا يجدر بها أن تتخلى عن شجاعتها وأن تتهم بالخور والجبن !

إنها نادية . . عذراء فى التاسعة عشرة . . فتانة بما يعنى مدلول اللفظ . ومع أنها وقت أن جاءتنى كانت مريضة . . لا . . بل كانت ماضية إلى الموت ذاته . . لم تتخل عن وجهها سمات الفتنة الآسرة !

وكانت قصتها قد بدأت قبل أن تحضر إلى بوقت طويل ! . كانت مريضة بالسرطان ! والسرطان حتى أفلت زمامه من أيدينا فإن أية قوة . . وأية حكمة لا تقيد فى دفعه أو كبح جماحه . والحد النهائى لهذا المرض الخطير أنه مجموعة من الخلايا تنمو فى الجسم على حساب التركيبات المحيطة . . وخارجة عن تحكم الجسم . . فالجسم الإنسانى يتكون من مجموعات من الخلايا تنجم عن انقسام خلية ثم انقسام أجزائها . . ثم انقسام هذه الأجزاء . . وهكذا إلى أن يتم نمو الإنسان . فإذا تصورنا أنه ليس من قوة تحكم هذا النمو . . فإننا نحصل فى النهاية على مجموعة من الخلايا لا شكل لها . وإذا افترضنا أن إحدى الخلايا ابتعدت لسبب ما عن اتصالها العصبى وهى لا تزال حية وفى موضع يمكنها

للأستاذ حسين عزمى بالعدد (٩٤٢) ، ولا أرى فيها محلا لتكرير كلما ، وإليك ما كتبه العلامة ابن هشام فى (مغنى اللبيب) متصلا بهذه الملاحظة :

« كل فى نحو . . كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا . . منصوبة على الظرفية باتفاق ، وناصبها الفعل الذى هو جواب فى المعنى مثل « قالوا » فى الآية ، وجاءتها الظرفية من جهة « ما » فإنها محتملة لوجهين ، أحدهما أن تكون حرفا مصدريا والجملة بعده صلة له فلا محل لها ، والأصل كل (رزق) . . والثانى أن تكون اسما نكرة بمعنى وقت . . ثم أورد قوله تعالى : (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) ، (كلما أضاء لهم مشوا فيه) ، (وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) ، (وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم)

. . وعلى ضوء هذا كله يتعين أن يكون الصواب فى عبارة الأستاذ الكبير : (كلما كان جمهور الفنان عديدا كان لرسالته فى الحياة قيمة) بحذف (كلما) الثانية ، وتحياتى إليه

محمد محمد الابشيهى

أن تحصل فيه على غذائها من السائل الدموى ؛ فالذى يحدث هو أنها تأخذ فى النمو والانقسام وتكبر فى الحجم وتغير على جاراتها من الخلايا العادية . وهذا ما نسميه « بالتضخم البغيض » أو « التضخم القاتل » . . هذا هو السرطان الذى يحطم الخلايا العادية المجاورة وينتشر خلال الأوعية اللمفاوية وينطلق فى مسرى الدم إلى سائر الجسم ! .

يدرك الطبيب أن دملا صغيرا هو تضخم بغيض بسبب أعراض معينة فيقول لنفسه :

فلأبتره قبل أن يشق على أن أعالجه . . وقبل أن يبتدئ فى مكان لا يمكننى فيه أن أبتره خوفا من إتلاف عضو حيوى . . أبتره سريعا قبل أن يغدو حرا وينتشر فى سائر الجسم . . إلى الرئتين .. أو إلى العمود الفقرى .. أوعظام الساق .. أو الصدر .. أو الكبد أو أى مكان آخر حيث لا يمكننى أن أزيله تماما دون أن أقتل المريض ! هذا هو السبب الذى من أجله ننصح الناس دائما بأن يستشيروا طبيبهم حالما يرون دملا غريب الشكل ! . وهذا هو السبب الذى من أجله نتألم عند ما تقول لنا سيدة إن لديها تضخما منذ ستة أشهر ولكنها لم تشأ أن تخبر بأمره أحدا . . ستة أشهر أضاعت خلالها على نفسها فرصة العلاج السريع لأنها أبت أن تكاشف أحدا بمرضها ! .

كانت هذه هى الحالة التى جاءتنى عليها نادية

وكانت مخطوبة إلى ابن خالتها . . وراحت تنتظر معه اليوم الذى يربطهما فيه الرباط المقدس . . ولكن هذا اليوم السعيد الذى تتحقق فيه المنى لم يحدث أن أقبل أبدا !

العاطفة الشبوبة .. واللهفة والحنان .. كل أولئك لم أعرفه فى غير هذين الخطيبين ! كان يحب أحدهما الآخر حبا يتضاءل أمامه كل حب رأيته أو سمعت به . وكان الوفاء الذى يستخف بالتضحية . . وتهون عليه الصعاب هو ذلك الوفاء الذى كان يعشش فى صدرى هذين العاشقين الصغيرين ! . رأيت ذلك من قرب ولمسته فى الوقت القصير الذى قضياه فى عيادتى ! . أبدا لم أسمع فى حياتى أرق من ذلك الصوت الذى كان يخاطب به الخطيب خطيبته .. ولا تلك اللهفة التى كانت تبين فى صوته وهو يقول لى :

— أريد أن أطمئن يا سيدى

كانت قولته هذه التى انبجس منها الشعور الحار دافقا جياشا . . هى كل ما قاله لى .. وزايل الغرفة وتلبث خارجها ينتظر الكلمة التى تنفرج عنها شفتاى . تلبث ينتظر حكمى بالحياة أو الموت على فتاته

.. وكان فى الغرفة أن قصت على قصتها

عندما ظهر التضخم فى صدرها حسبته بادئ الأمر دملا . . ولم يجد العلاج الذى استطبت به . . وراح ما حدسته دملا يكبر .. ويكبر . وغاضت الابتسامة من وجهها . وبدأ التفكير العميق يستغرقها والهواجس تستبد بها . ! لاحظ الفتى أن فتاته غدت موزعة النفس مشتركة الذهن ! وآخته حيرة مضنية وراح يلحف فى سؤالها عن السر فى سهومها المطرق . وكان جوابها عن كل الأسئلة التى ألقاها عليها هو قولها :

— ليس بى شئ ! أية صدمة أصابته . . وأى حزن كاد يطيح بصوابه عندما أطلعته آخر الأمر على ما استسر طويلا فى صدرها من الوساوس !

وبدا له أن يعرضها على طبيب . . وأشار الطبيب بأن يجرى لها سريعا جراحة استئصال التضخم وأجريت الجراحة . واختفى المرض .. وتوارت آثاره البغيضة

وكان من الممكن أن تعود الابتسامة إلى مكانها من شفتى الخطيبين وأن يمضيا فى مشروع زواجهما الذى عطله المرض ! ولكنهما كانا فى خوف متصل من أوبته ! كانت تمر بهما الساعات الطوال وهما مستغرقان فى إطراقة الصمت وينتبهان إلى نفسيهما فيجد كل منهما أنه أمام صاحبه . . وتجرى على شفاههما ابتسامة حزينة .. كانا يدركان أن ماردا جبارا يهدد سعادتهما !.

. . ودرجت الأيام . . ولم يظهر أثر ما لعودة المرض وقال الطبيب لحبيبته وفى قلبه ابتسامة كبيرة :

— ستتزوج !

أجابته وهى لا تملك نفسها من السعادة قائلة :

— نعم ستتزوج . !

وطافا بعيادات الأطباء . . واقتنيا أثاث غرفات أربعة . وحددا يوم الزفاف .. وجرى كل شئ على ما يشتهيان . عندما

أحست الفتاة فجأة بتغييرات فى مساحة الجراحة ، بدأت تظهر فيها بثور شاهية راحت تكبر على الأيام .. كل يوم كانت تطالعها بوجه أكثر بشاعة ودمامة من اليوم السابق ! لقد آب المرض الكريه .. ولكنها لم تستطع أن تنبئ فتاها بأوبته .. إنه كان قد فدا مرة أخرى سعيدا مجدودا . . وزايلت وجهه سمات الحيرة والقلق ! ولأنها كانت أجمت أمرها على أن تنفرد دونه بالألم فقد أطبقت على السر الرهيب صدرها ! وراحت تتحامل على نفسها لتحتفظ بمرحها وروحها المذبة . وكتمت السر طويلا حتى ضمر جسدها ، وبانت عليها نهكة المرض . . ولكن الفتى لم يكن بحاجة لمن ينبئه بالحقيقة السافرة .. وقال لها :

— ينبغى أن تعرضى نفسك على الطبيب مرة أخرى

وتهالكت على المقعد فى إعياء وهى تمسك براحتها صدرها قائلة :

— لم تعرض فتاة معافية نفسها على طبيب ؟

قال لها :

— ولكنك لست معافية يا حبيبتى !

ومضى بها إلى الطبيب

ورأى الطبيب بنظرة واحدة أن المرض قد عاد . ففى خلال أصابيع الأستر والتكتم الطويلة تقدم تقدما حثيثا وأصبح لاغناء فى أية جراحة ولا جداء فى أى علاج !

أينبئها بالحقيقة ؟ ما الخير فى ذلك ؟.. ليس من شئ يمكن أن يوقف تقدم المرض . إن إنباءها بالحقيقة معناه أن يغرقها وفتاها فى ظلمات اليأس القاتل .! لقد كانت أيامها معدودة .. فلم لا يجعل حياتها فيما يستطيع خالية من الشقاء والتعاسة ..؟

وفى حال من التأثر بهذه الروح الإنسانية التالية قال لها وهو يربت على كتفها فى جذل مصطنع :

— لا محل إطلاقا لأوهامك وهواجسك فأنت معافاة سليمة .

كثيراً ما يقسو الناس فى أحكامهم على الطبيب إذا جاءت النتائج على عكس ما قال لهم . البعض يتهمه بالغفلة .. والبعض الآخر بالشره .. وليس فيهم من يدرك الموقف الدقيق الذى تفرضه عليه بعض أمراضهم !. ولا من يدرك أنه بشر مثلهم .. وإن أقسى ما يشعر به هو أن يعجز عن أن يعيد الابتسامة إلى مكانها من شفاه مرضاه التعساء .!

وحدثت المريضة نفسها قائلة بعد أن غادرت عيادة الطبيب :

— لشد ما خدعت نفسى .. وخدعتنى أوهامى .. ولشدما أنا آسفة على القلق الذى استبد لت له وتركته يأخذ بخناق ! .

ولا شك أن الفتى قال لنفسه بعد أيام من زيارتهما للطبيب :

— لقد أكد لى الطبيب أن صحتها على ما يرام وأكدت لى نفسها أنها فى عافية .. ففيم إذن ضعف فتاتى وسقامها ؟ .

ومرة أخرى أقلقه الشك فأجمع أمره على أن يستشير طبيباً آخر .. وكنت أنا الطبيب الأخير الذى استشاره !..

كانت النظرة التى تمليتها من المريضة كافية لأن أعلم أن برءها محال . وأشكلت على وجوه الرأى ولم أدر هل أصارحها بالحقيقة أم أكتمها عنها وأطمئنها كما طمأنها طبيبها من قبل ، وأدع الأقدار وحدها تقول لها كلمتها وهى فصل الخطاب !.. ولكننى كنت استمعت منها إلى قصتها . وعرفت ظروف حياتها وكنت إلى ذلك أعرف أن فتاها ينتظر فى صبر أرعن الكلمة التى ستنفرج من بين شفتى .. فأية قسوة أن أقول أمامه لفتاته :

— لا أمل فى شفائك يا ابنتى

من يتصور أن أصدم فتاة فى حياتها . . وفتى فى أمله فى الحياة ؟ ورأيتنى أميل إلى أن أكتم عنها الحقيقة فقد رأيت من الرحمة والبر ألا أطفئ جذوة الأمل الأخيرة فى حياة هذين العاشقين .! وما كدت أنتهى إلى هذا القرار حتى انساب إلى صوتها الواهن وهو يقول :

— أرجو أن تنبئنى بالحقيقة يا سيدى — إننى أعلم دقة مركزك . . ولكن يجب أن أعلم الحقيقة مهما كانت قاسية .. !

وشئت أن أتكلم .. ولكن الكلمات ماتت على شفتى . وأطرقت أفكر بينما تابعت هى حديثها قائلة :

— يريد خطيبى أن يعلم الحقيقة .. ولكن ينبغى ألا تخبره بها إن كانت قاسية فهى حرية بأن تطيح برشده وتشقيه .. ولكننى أستحلفك بشرف المهنة أن تنبئنى بها !.

وهكذا رأيتني في موقف يتحتم علي فيه أن أتكلم !.

وصعدت إليها بصري لأول مرة منذ تكلمت فرأيت العزم والتصميم باديين في وجهها فقلت :

— ما دامت تلك هي إرادتك.. فانه يحزنني أن أقول لك أن الزمام قد أفلت من أيدينا

ومع أن وجهها كان قاسيا إلا أن الدموع طفرت فجأة وتحدرت على وجنتيها في خطين دقيقين ! . أدركت في لحظة واحدة أنها امرأة فانية .. وأنها بعد وقت طويل أو قصير سترحل عن الدنيا وعن فتاها وعن ذويها .. وعن كل ما هو عزيز لديها وحبيب ..! قالت في صوت يزخر بالانفعال :

— أما يوجد علاج ... أي علاج ؟

— يؤسفني أن أقول لا !

— أما ينتظر أن أعيش ستة أشهر أخرى ؟

— يؤسفني أن أقول ... لا ... أيضا . !

قلتها وفي قلبي كآبة كبيرة ... ورأيتها تخرج منديلا من حقيبة يدها راحت تكفكف به الدمع المنحدر من عينيها ! . وفي لحظة واحدة تبدلت الفتاة الفانية التي كانت أمامي واستحالت إلى فتاة جديدة .. في عينيها توكيد وعزم وقالت .

— ينبغي ألا يعرف !

وتقدمتني إلى الباب وفتحته في هدوء وقد جرت على شفتيها ابتسامة كنت وحدي أدرك كنهها وما تنطوي عليه من اليأس القاتل ... وانتفض القلب واقفا عندما فتح الباب ..

الابتسامة الوضيئة ! الابتسامة المريرة .. الابتسامة الشجاعة كانت هي كلمة الأمان التي قالتها له فتاته وإن لم تتكلم . !

ولكنه تقدم مني ملهوفا كأنه يتهم عينيه وقال :

— أهي بخافية ياسيدي ؟

وابتسمت له ونياط قلبي تتقطع وقلت :

— أنت ترى بعينيك يا ولدي أنها بخافية ... وعلى مايرام !

وشد على يدي في حرارة وقوة وقال في شغف :

— شكراً لك يا سيدي ... شكراً لك . !

وما كادا يغادران العيادة حتى أطلت عليهما من النافذة وفي عيني دمعتان كبيرتان ! كانت الفتاة تمضي في الطريق إلى جانب فتاها وهي متأبطة ذراعه في جذل كاذب ! . أية سعادة وهمية تلك التي كانت تعشش في صدر الفتى . ! وأي شقاء كان في صدر الفانية ؟

تدبرت هذه المفارقة الفذة وأنا واقف إلى النافذة أتبعهما بصري عندما قفز إلى رأسي هذا السؤال :

لم سألتني عن المدة التي يمكن أن تعيشها ؟ أتراها تزعم أن تنعم فتاها بالزواج بها ما تبقى من حياتها وهي قصيرة .! أم تراها تريد أن تتعجل أيامها الباقيات ؟ .

أبدا لم يخل ذهني لحظة واحدة من التفكير في نادية فقد كنت أعلم أنها غادرت عيادتي لتموت ...

كمال رستم